مجلة العرفان للدراسات الصوفية ISSN 2602-7526
المجلد 05 – العدد 01 – السنة 2023
ص 70 - 90

المصطلح الصوفي ودور المعاجم المتخصصة المعاصرة في مقاربته (عرض نماذج مختارة)

The Sufi Terminology and the Role of Contemporary Specialized Dictionaries in Approaching It (Using Selected Case Studies)

د. شميسة خلوي *

جامعة الجزائر2 (الجزائر)،

soumicha.khaloui@univ-alger2.dz

الملخص:

تعد المصطلحات مفاتيح العلوم، لذلك استحدث علم المصطلح باعتباره يركّز على العلاقة بين المفاهيم والألفاظ، والمعرفة ككل هي مجموعة مفاهيم يرتبط بعضها ببعض، لذلك فإن وجود المعجم المتخصِّص مطلب لا مراغ منه في مختلف الحقول المعرفية.

من هذا المنطلق، التفتت ثلة من الباحثين في ميدان التصوف إلى تأليف معاجم متخصِّصة تضم أكبر رصيد من مصطلحات التصوف المقرونة بالتعريف والشرح والمدعَّمة بالشواهد، والمرتبة ترتيبا مخصوصا، مما يجعل الوصول إلى المصطلح سهل الملتمس، ويمكِّن المتعلم والباحث من الإلمام بمباحث التصوف، وفي هذا السياق، نسعى من خلال ورقتنا البحثية إلى استقراء نماذج من الجهد المصطلحي المعاصر والهادفة إلى إظهار المعنى الدلالي للمصطلح الصوفي، عارضين أربعة معاجم هي: معجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحفني، والمعجم الصوفي لسعاد الحكيم، ومعجم ألفاظ الصوفية لحسن الشرقاوي، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي لرفيق العجم.

الكلمات المفتاحية: المصطلح؛ التصوف؛ المعجم المتخصص.

* المؤلف المرسل

Abstract:

Terminology is the key to science, so Terminology was introduced as it focuses on the relationship between concepts and expressions as knowledge, a whole, is a group of related concepts. Therefore, the existence of a specialized dictionary is a must as it us an unavoidable requirement which is used in various fields of knowledge. From this standpoint, a group of researchers in the field of Sufism have decided to create specialized dictionaries that include the largest collection of Sufism terms linked to definition, explanation and supported by evidence. The rank is in a special arrangement, which makes access to the term easy for the petitioner, and enables the learner and researcher to gain familiarity with the investigations of Sufism.

In this sense, we seek through this article to extrapolate examples of the contemporary terminological efforts that have been done to show the semantic meaning of the Sufi term. we will be presenting four dictionaries: the dictionary of Sufi terms by Abd al-Munim al-Hefni, the Sufi dictionary (wisdom within the boundaries of the word) by Suad al-Hakim, the dictionary of Sufi expressions by Hassan al-Sharqawi, and the encyclopedia of terms of Islamic mysticism by Rafiq al-Ajam.

Keyword: Issues, Sufism, Specialized lexicon.

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

خلق الله الإنسان وعلَّمه البيان فله الحمد أنْ علَّم، والشُّكر على ما أنْعم، والصلاة على خير الأنام، وبعد:

إن اللغة التي تستوعب المعارف والعلوم المختلفة تمتلك بالضرورة رصيدا مصطلحيا متنوعا، باعتبار المصطلحات مفاتيح العلوم، ولا يتحقق هذا إلا بضبط منهج علمي رصين لها.

وللغة العربية رصيد مصطلحي لا ينكره جاحد، واكب مختلف العلوم والآداب والفنون، وكثيرا ما ينقسم المشهد النقدي حول بعض المصطلحات حيث يتبنى كل واحد ما يراه مناسبا، ناهيك عن وجود فهم مسبق أو خاطئ للكثير من المصطلحات، لذلك اخترنا أن تكون لنا وقفة مع المعاجم المتخصصة والمتعلقة بالتصوف عرضا وتقييما، باعتبارها تجمع المصطلحات وتقدِّمها جاهزة لطالب المعرفة.

والتصوف في عرف المختصين هو «التخلّق بالأخلاق الإلهية، وخرقة التصوف هي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يده، وهو أيضا الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدّب بالحكمين كمال»[1]، وللتصوف لغة خاصة تنزاح عن المعاني العادية المتداولة.

1. المعاجم والمعاجم المتخصِّصة:

كثيرا ما تسعفنا المعاجم ببيان مراد ألفاظ معينة، سواء باللغة العربية أو بغيرها من اللغات، فلا غنى للمتعلم عن اقتناء المعاجم أو مراجعتها في المكتبات ليستقيم الفهم ويحيط بما هو مطلوب، سواء تعلق الأمر بألفاظ عامة ضمن المعاجم العامة أو ألفاظ فن وعلم معين ضمن المعاجم المتخصصة.

فما هو المعجم؟ وما المقصود بالمعجم المتخصص؟

يعرف المعجم بأنه «الكتاب الذي جمع كلمات لغة ما، يشرحها ويوضح معناها ويرتبها بشكل معين، وتكون تسمية هذا النوع من الكتب معجما إما لأنه مرتب على الحروف الهجائية، وإما لأنه قد أزيل أي إبهام أو غموض منه»[2]، وتبعا لذلك فإن المعجم العام موجه لفئة عريضة من المجتمع، تستوعب المتخصص وغير المتخصص.

بينما تعرف المعجمات التخصصية بأنها «معجمات تقدم الألفاظ الخاصة بفرع من فروع العلوم»[3]، كالعلوم التقنية مثل الحواسيب والكيمياء وعلوم الطبيعة والحياة، أو كالعلوم الإنسانية

كالأدب واللغة واللسانيات والفلسفة والعلوم الشرعية، وغير ذلك، وهذه الألفاظ الخاصة غالبا ما توسم بالمصطلحات، والمصطلح عبارة عن «اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول وإخراج اللفظ من معنى لغوي آخر لبيان المراد»[4].

ومن خلال التعريفات السابقة، يجمع المعجم العام ألفاظ اللغة العامة بمختلف أنواعها، بينما يلِمُّ المعجم المختص بمصطلحات فن من الفنون أو علم من العلوم.

2. عرض نماذج لمعاجم معاصرة متخصصة في المصطلح الصوفي:

لقد ظهرت قديما الكثير من المحاولات التي ابتغى أصحابها الإحاطة بالمصطلحات الصوفية بغية تقريبها للفهم وتوسيع المدارك حولها، محاولين التأكيد على رمزية تلك الألفاظ، مثل ذلك: القِسم الذى عقده أبو نصر السراج الطوسي (ت:387هـ) في مصنفه اللَّمع في التصوف، وما أفرده أبو القاسم عبد الكريم القشيرى (ت:465هـ) في رسالته، ومن بعده أبو حامد الغزالي (ت:505هـ) في الإملاء عن إشكالات الإحياء، والقشاني (ت: 730 هـ) في اصطلاحات الصوفية وغير ذلك.

ومع تزايد الاهتمام بالتصوف ظهرت في العصر الحديث موسوعات ومعاجم للإحاطة بالمداخل اللفظية المتعلقة به، وفهم الألفاظ الجارية على ألسنة الصوفية، وكان العمل يحمل صبغة المعاجم الحديثة بإضافة صبغة الترتيب المعجمي للمداخل بخلاف المصنفات القديمة من جهة، ومتفق معهم في إبراز المعنى المقصود من اللفظ عند الصوفية من جهة ثانية، ونتحدث فيما يلي عن أربعة نماذج من المعاجم المعاصرة المهتمة بالمصطلح الصوفي عرضا ونقدا، مرتبة ترتيبا راعينا فيها صدور أول طبعة للمعجم، فبدأنا بالأقدم فالأحدث.

1.2 معجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحفني:

"معجم المصطلحات الصوفية " معجم تفرد فيه صاحبه عبد المنعم الحفني برصد المصطلحات الصوفية وجمعها، صدرت طبعته الثانية العام: 1987م، أحادي اللغة (عربي/عربي).

أ. الوصف الخارجي:

يتكوَّن "معجم مصطلحات الصوفية" من (272) صفحة، حجم: (24×17)، كتب على واجهته عنوان المعجم "معجم المصطلحات الصوفية" بخط كبير غليظ يتوسط الصفحة من الأعلى، مع وجود بيتين شعريين أسفل الواجهة يدل على أن الكاتب من مريدي أعلام الصوفية وأنه يتقرب إلى الله بحبهم:

أَدْعُوكَ يَا رَب مُضْطــــرَاً عَلَى ثِقَـــةٍ *** فَمَا وَعَدْتَ به المضْطَرَ يَدْعُوكَا[5]

حانَ الرَّحِيلُ وَمَا أَعْدَدْتُ مِنْ عَمَلٍ *** إلاَّ مَحَبَّـــةَ أقْـــوَامٍ أحـــبُّـــوكَا

وقد اعتمد في إخراج الغلاف على زخرفة بسيطة مع إدماج اللون الأخضر بثلاث تدرجات، ومعلوم أن للألوان أبعادا ايحائية ودلالات رمزية، حسب المتعارف عليه في الثقافة اللونية، وحسب السياق الذي يرد فيه الفضاء اللوني، واللون الأخضر لون مشبع بالدلالات الرمزية، كون اللون تركيبة ثقافية معقدة، يكون فيها الديني والتاريخي مرتكزا في تشكيل الإرث الرمزي للون وإعطائه أبعادا دلالية، ولم يخرج شيوخ المتصوفة ومريديهم عن القاعدة، حيث إن «أشهر الألوان لدى هذه الطائفة قديما وحديثا هو استعمال اللون الأخضر لأنه –بحسبهم– لون الجنة ولون لباس أهلها»[6]، وعليه جاء اللون الأخضر مناسبا ومنسجما مع عنوان وفحوى المعجم.

كما يظهر اسم ولقب الكاتب ودرجته العلمية "دكتور عبد المنعم الحفني" ومذيل باسم دار النشر: "دار المسيرة، بيروت"، وندرج صورة الغلاف فيما يلي:

الشكل 1:

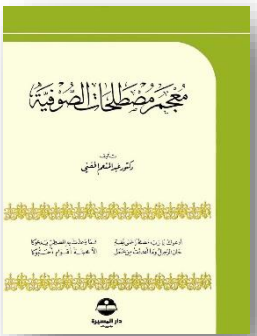

المصدر: معجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحفني

ونشير إلى أن المصنِّف قد طوَّر عمله المعجمي وحوَّله إلى "الموسوعة الصوفية"[7] والذي وصفه بالكتاب الشامل لأعلام التصوف وطرق ولغة الصوفية ومصطلحاتهم مما يستعجم معناه على غيرهم، وصدرت طبعته الأولى سنة 2003م.

ب. أهداف المعجم وأهميته:

إن المطلع على المعجم، يتبين له أن الكاتب لم يورد مقدمة يبين فيها هدفه أو منهجه في التأليف، غير أن التصدير الذي استهل به معجمه أعطانا نظرة عن هدفه والمتمثل في تقريب المصطلح الصوفي لأذهان العامة، إذ أورد مقتطفا[8] لجواب أبي العباس بن عطاء (ت: 309هـ) – وهو من أعلام التصوف السني– لما سأله بعض المتكلمين قائلا: ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظا أغربتم بها على السامعين وخرجتم عن اللسان المعتاد؟ هل هذا إلا طلب للتمويه أو ستر لعوار المذهب؟ فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لعزته علينا كيلا يشربها غير طائفتنا ...

إِذَا أَهْلُ العِبَارَةِ سَاءلُونَا *** أَجَبْنَاهُمْ بأَعْلاَمِ الإِشَارَة

نُشِير بِهَا فَنَجْعَلُها غُمُوضًا *** تَقْصُرُ عَنْهُ تَرْجَمَة الْعِبَارَة

ونُشْهِدُها وَتُشْهِدُنَا سُرُورًا *** لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ إِثَارة

تَرَى الْأَقْوَال فِي الْأَحْوَالِ أَسْرَى *** كَأسْرِ الْعَارِفِين ذَوِي الْخَسَارَة

ت. تبويب المعجم:

لقد اتبع الكاتب طريقة مباشرة في عرض المادة العلمية المتعلقة بالتصوف، إذ بعد التصدير الذي قام مقام المقدمة، انتقل مباشرة لذكر المصطلحات مع شرحها، ليتم معجمه بفهرس جامع.

ث. معجم مصطلحات الصوفية... محامد ومعايب:

يمكننا الاتكاء على ميزة واحدة طبعت هذا المعجم وهو اتباع الكاتب طريقة موحدة في عرض المصطلحات، حيث يشرح المصطلح بما يتوافق والمعاني الصوفية، ثم ينتقل إلى ما بعده في تسلسل وفق الترتيب الألفبائي للمصطلحات من أول لفظ (آخرة) إلى آخر لفظ في المعجم (ولى).

ثم إن المطلع على الكتاب بما يحمله من وحدات معجمية صوفية يلحظ مجموعة من النقاط السلبية نوجزها فيما يلي:

-اكتفى الكاتب بتصدير مقتبس عوض مقدمة يجمل فيها الحديث عن معجمه وطريقة صياغته والهدف منه، وهذا عيب منهجي يحسب على المعجم وصاحبه.

-لم يرد في المعجم أي مصدر أو مرجع يُمكِّن القارئ من الاستزادة منه أو على الأقل معرفة مصدر المصطلح، إذ اكتفى الكاتب بعرض المصطلح وشرحه فحسب.

-لا يمكن للقارئ إحصاء عدد الألفاظ التي تدخل في نطاق المعجم لأن الكاتب لم يولي الترقيم اهتماما، فقد جاءت المصطلحات متتالية دون ترقيمها.

2.2 معجم ألفاظ الصوفية لحسن الشرقاوي:

صنَّف الدكتور حسن الشرقاوي معجمه الموسوم بـ: "معجم ألفاظ الصوفية" وقد صدرت طبعته الأولى عام 1987م، وطبعته الثانية المنقحة سنة 1992م.

أ. الوصف الخارجي

يتكون "معجم ألفاظ الصوفية لحسن الشرقاوي " من (303) صفحة، حجم: (24×17)، كتب على واجهته عنوان المعجم "معجم ألفاظ الصوفية" في نطاق من اللون البرتقالي القاتم، ويليه تحته مباشرة اسم ولقب المؤلف مع بيان درجته العلمية (دكتور حسن الشرقاوي) في نطاق برتقالي فاتح اللون، وتظهر خلفية الواجهة باللون الأزرق بزخرفة بسيطة من اليمين ولون أزرق موحَّد على اليسار، وأثبت في الغلاف رقم الطبعة (02) ودار النشر (مؤسسة مختار) والصورة الموالية تظهر واجهة المعجم:

الشكل 2:

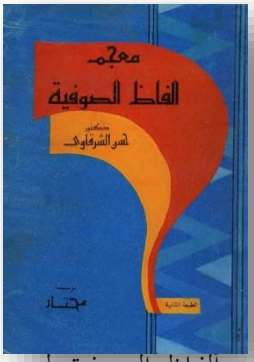

المصدر: معجم ألفاظ الصوفية لحسن الشرقاوي

ب. أهداف المعجم وأهميته:

ابتدأ المؤلف عمله المعجمي بمقدمة من (11) صفحة أوضح فيها وجهة نظره حول التصوف، مدافعا عن مبادئ هذا العلم وأصوله، لعِلمه بتنكر معالمه واستبهام وجوه أمره عند كثير من العامة أو غير المتخصصين، ولاعتقاده أن وسيلة المعرفة تكمن في الذوق والكشف وفي ذلك يقول: «هذه الألفاظ لا تعرف عن طريق منطق العقل والنظر بقدر ما تفهم عن طريق الذوق والكشف ولا يتأتى ذلك إلا لسالك يداوم على مخالفة الأهواء وتجنب الآثام»[9]، ويضيف المؤلف في ثنايا مقدمته مبينا المرجعية القرآنية للألفاظ الصوفية: «ألفاظ نورانية جاءت معظمها في ثنايا القرآن الكريم وأيدها الله قولا ومعنى والتي هي تعبير حقيقي عن مصطلحاتهم وإشاراتهم وأخلاقهم وآدابهم

ولنحاول لنتفهمها أن نصدق مع أنفسنا ونطبقها في سلوكنا مع الآخرين فإنها وجبات كاملة للقلوب الجائعة للحق»[10]، وعلى هذا الأساس جاء المعجم –من وجهة نظر كاتبه– ليلبي حاجة معرفية تتلخص في مواجهة فكر الطاعنين بايراد حقيقة المصطلحات الصوفية.

ت. تبويب المعجم:

سار المصنف وفق منهجية علمية موحدة حيث بدأ بمقدمة ثم عرض المداخل المعجمية الصوفية، ثم خاتمة وتلتها قائمة من المصادر والمراجع التي اعتمدها في شرح الغامض من الألفاظ المدرجة في معجمه، وختم عمله بفهرس جامع.

ث. معجم ألفاظ الصوفية... محامد ومعايب

إن المتبصر في المعجم يدرك أن لهذا الجهد محاسن شتى، أهمها ايراد المصنِّف للفظ بمعناه اللغوي ثم معناه من وحي القرآن الكريم مع ذكر الآيات المناسبة مما يمنح المصداقية للقول بالأصول القرآنية للفظ ويلي ذلك بعض الاستشهادات من كتب أرباب التصوف، معتمدا في ذلك الترتيب الأبجدي.

بالمقابل، لا نجد المؤلِّف قد رجع لكتب التفسير التي من شأنها أن تزيل الغموض وتزيح حجاب الريب عن معاني الآيات، خصوصا إذا علمنا أن رد اللفظ الصوفي إلى أصوله القرآنية كان هدفا من أهداف صياغة المؤلِّف لمعجمه.

ونظرا للعدد الكبير من الآيات القرآنية المستخدمة في المعجم، لفت انتباهنا عدم اهتمام المؤلف بضبط الآيات بالشكل التام، وغياب جزئي للهمزة في جملة من الألفاظ وكذا رسم الياء في آخر الكلمة (ي) ألفا ممدودة (ى) في مواضع كثيرة جدا.

كما لا نجد ترتيبا رقميا للمفردات داخل المعجم، وبالتالي لا يعطينا القدر الإجمالي من الألفاظ التي حواها المعجم.

3.2. المعجم الصوفي (الحكمة في حدود الكلمة) لسعاد الحكيم:

"المعجم الصوفي" معجم متخصِّص في المصطلحات الصوفية للدكتورة سعاد الحكيم، أصدر العام: 2006م في طبعته الأولى، أحادي اللغة (عربي/عربي).

أ. الوصف الخارجي

يتكوَّن "المعجم الصوفي" من (1312) صفحة، حجم: (24×17)، نلحظ على واجهته عنوان المعجم "المعجم الصوفي" بخط كبير غليظ يتوسط الصفحة من الأعلى، مع إدراج لعبارة: "الحكمة في حدود الكلمة" وهو وسم لأهمية الحكمة حينما تُختزل في الكلمة، ومعلوم أهمية الحكمة في الخطاب الصوفي والفلسفي معا.

كما يُظهر الغلاف اسم المؤلفة مع لقبها العلمي وانتمائها الأكاديمي: "الدكتورة سعاد الحكيم: أستاذة التصوف في الجامعة اللبنانية" ومذيل باسم دار النشر: "دندرة للطباعة والنشر"، وندرج صورة الغلاف فيما يلي:

الشكل 3:

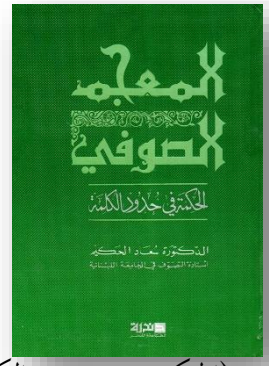

المصدر: المعجم الصوفي (الحكمة في حدود الكلمة) لسعاد الحكيم

ب. أهداف المعجم وأهميته:

نستشف من خلال قراءتنا لمقدمة المعجم، أن كاتبته توخَّت تتبُّع التجربة الصوفية في سلوكها ومفرداتها في خطاب ابن عربي، فهو معجم صوفي مفرداته منتقاة من قمة تفتُّح التجربة الصوفية واللغة الصوفية في إطلالتها على الفلسفة وغيرها من العلوم والفنون.

ت. تبويب المعجم:

استُهل المعجم بمقدمة منهجية ثم الإهداء، والشكر والتقدير، والرموز والاختزالات المستعملة في المعجم، ويلي ذلك المادة الأساسية للمعجم، ثم أنهته المؤلفة بالفهارس، وأهم المصادر والمراجع التي اعتمدتها في إنجاز معجمها.

ث. المعجم الصوفي... محامد ومعايب:

إن المعجم الصوفي" له مميزات متنوعة، منها ما يشترك فيها مع معاجم أخرى، ومنها ما ينفرد بها عن باقي المعاجم، ونحاول أن نجمعها في النقاط التالية:

-اتَّعبت الكاتبة منهجية موحَّدة في عرض معاني الألفاظ المدرجة في معجمها على نحو نجد فيه اللفظ مبسوط المعنى في اللغة ثم في القرآن ثم عند ابن عربي.

-تحيل الكاتبة القارئ إلى مجموعة مصادر في آخر تذييل للمصطلح، لتنتقل لطرح لفظ آخر بنفس الطريقة.

- راعت مؤلفة المعجم الترتيب الألفبائي للمصطلحات من أول لفظ (إبراهيم) إلى آخر لفظ في المعجم (اليوم).

-كما أدرجت (607) مصطلحا في معجمها.

-ختمت المعجم بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها الكاتبة في تصنيف معجمها، وتعد الفتوحات المكية لابن عربي بمختلف أجزائه المرتكز الأساسي لرصد مفاهيم مصطلحات المعجم.

-ثم أفردت الباحثة للأحاديث فهرسا وللمفردات فهرسا أيضا.

وإنه مع ريادة هذا المعجم في بابه، ورغم ما تميز به من نقاط ايجابية جعلته متصدرا مجال المصطلح الصوفي عموما ومصطلح ابن عربي خصوصا، إلا أن هناك بعض الثغرات التي لاحظناها والتي نوجزها في النقاط التالية:

- لقد أقرَّت الكاتبة إحجامها عن الرجوع لكتب التفسير حينما تورد مصطلحا مذكورا في آي الذكر الحكيم، مبررة ذلك بتعدُّد الرؤى التفسيرية باختلاف توجهات المفسرين، وفي ذلك تقول: «وقد حاولت ألا أرجع قدر الإمكان إلى كتب التفسير الكثيرة وذلك على عمد لأن كل من انبرى لمحاولة تفسير القرآن كان يراه بمرآته هو ومن خلال تجربته هو ويفسره بالفن الذي برع فيه هو فنغرق إذ ذلك في بحث قرآني يخرجنا عن مقصودنا»[11].

فما وجه الرأي في منهجها؟ أم هو توجه مقصود لكنه صادر عن غير روية؟

لقد قيَّظ الله لكتابه علماء يفسرونه، ويبينون المنهج الرباني الصحيح لعامة المسلمين، بدءا مما نُقل إلينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من تفسير لكتاب الله، إلى يوم الناس هذا، حيث لم يتوقف التدوين في علم التفسير عند مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، سواء كان تفسيرا كاملا أو جزئيا، أو اختصارا أو تعليقا على جهود السابقين، مما يدخل جميعه في إطار تفسير كتاب الله على وجه العموم، يقول ابن جُزي (ت:741هـ): «معنى التَّفسيرِ: شرحُ القرآنِ، وبيانُ معناه، والإفصاحُ بما يقتضيه بنصِّه أو إشارَتِه أو نجواه»[12]، وهذا من أجمع التعاريف التي تقتضي بيان علم التفسير.

ومعلوم أن قيمة أي علم وأهميته إنما تقاس بأهمية المعلوم، لذلك حاز تفسير كتاب الله الاهتمام البالغ، وليس أدل من قول ابن عطية (ت:542هـ) مبينا شرف وأهمية الاشتغال بكتاب الله تفسيرا وشرحا: «فلما أردتُ أن أختار لنفسي، وأنظر في علم أعِدُّ أنواره لظلم رمسي، سبرتها بالتنويع والتقسيم، وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم فوجدت أمْتنها حبالا، وأرسخها جبالا،

وأجملها آثارا، وأسطعها أنوارا، علم كتاب الله جلَّت قدرته، وتقدَّست أسماؤه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خل[13].

وإن دراسة المصطلح وشرحه هو تمييز له معجميا ودلاليا، فإن كان المصطلح من القرآن الكريم رجعنا للتفاسير، ولا ينكر عاقل دور التفاسير في فهم ألفاظ القرآن الكريم، خصوصا إن علمنا أن العلوم اللازمة للمفسِّر عُدَّت خمسة عشر علما منها: ثمانية من علوم العربية، وهي: اللغة والنحو والتصريف والاشتقاق والمعاني والبديع والقراءات، وقد علَّل (السيوطي) (ت: 911هـ) ضرورة تمكُّن المفسر من اللغة بقوله: «بها يُعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع»[14]، ففهم القرآن بفهم اللغة، ولا يتأتى ذلك دون تفسير.

وعلى ضوء ما تقدَّم، نرى أن عدم الاعتماد على التفاسير في المعجم المدروس أنقص من مصداقية معاني المصطلحات بعكس ما أرادته الكاتبة.

-حاولت الكاتبة الاعتماد تقريبا على معجم واحد هو مقاييس اللغة لابن فارس (ت: 395هـ) معلِّلة ذلك بقولها: «تحدَّدت بمعجم واحد تقريبا هو معجم مقاييس اللغة لابن فارس لما يتمتَّع به من مزية منطقية إذ جمع إلى ايجازه شمول كل الأصول التي يمكن أن تتفرع إليها الكلمة»[15].

فهل اجتمع رأي اللغويين حقا على تفضيل مقاييس اللغة عن غيره من المعاجم؟ أم هو اجتهاد شخصي من الكاتبة؟ وهل المزية المنطقية هي التي تكسب المعجم اللغوي أهميته؟

إن معجم المقاييس له من الحسنات ما له وأولها منهجه الجديد الذي سار عليه بخلاف من سبقوه والذي أشارت إليه الكاتبة فيما نقلناه عنها في مقدمة كتابها، لكن هذا لا يصوّغ لمن يريد الإحاطة بمعاني الألفاظ الاعتماد عليه كلية، لأسباب منهجية أهمها[16] عدم شرحه الكثير من الصيغ نظرا للاختصار الذي كان أحيانا مخلاً بفهم المعنى، وما نتج عنه من اضطراب في تقسيم المواد حسب أصولها.

فلا ضير إذن من الاعتماد على أكثر من معجم لتكون نتائج البحث المعجمي دقيقة وخادمة لنوع المنجز لا سيما إن كان في حدِّ ذاته عملا معجميا.

اختارت الكاتبة وسم معجمها بـ (المعجم الصوفي) وهذا يشير ابتداء إلى احتوائه على مصطلحات صوفية مبثوثة في كتب شيوخ المتصوفة ومريديهم من كتاب وشعراء وغيرهم، بينما ما نجده ماثلا في المعجم هو مصطلحات ابن عربي لا غير، فهل التصوف هو ابن عربي؟ وهل مصطلحات التصوف مقصورة على ما وجد في مؤلفاته فحسب؟

لا نختلف في كون ابن عربي[17] (ت: 638 هـ) من أعلام المتصوفة، لكن ما يميزه هو ما قوبلت به الكثير من مؤلفاته بردود أهل العلم عليها.

يقول الدكتور أبو العلا عفيفي –وهو المتخصص في التصوف والمتعمق في مجاميع ابن عربي– في تقديمه لفصوص الحكم ملخصا منهج ابن عربي: «ولا مبالغة في القول بأن كتاب (الفصوص) أعظم مؤلفات ابن عربي كلها قدرًا، وأعمقها غورًا، وأبعدها أثرًا في تشكيل العقيدة الصوفية في عصره وفي الأجيال التي تلته، فقد قرَّر مذهب وحدة الوجود في صورته النهائية، ووضع له مصطلحًا صوفيًّا كاملًا، استمدَّه مِن كل مصدرٍ وَسِعَهُ أَنْ يستمدَّ منه؛ كالقرآن، والحديث، وعلم الكلام، والفلسفة المشائية، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة الغنوصية المسيحية، والرواقية، وفلسفة فيلون اليهودي، كما انتفع بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية، والقرامطة، وإخوان الصفا، ومتصوفة الإسلام المتقدمين عليه، ولكنه صبغ هذه المصطلحات جميعها بصبغته الخاصة، وأعطى لكلٍّ منها معنًى جديدًا يتفق مع روح مذهبه العام في وحدة الوجود»[18]، إلى أن يقول: «هكذا اقتضى مذهب وحدة الوجود[19] أن يغير ابن عربي مفاهيم الاصطلاحات الدينية ويستبدل بها مفاهيم أخرى فلسفية صوفية تتفق وروح مذهبه»[20]، وعن هذا الكتاب الذي يعتبر باكورة فكر ابن عربي يقول الذهبي: فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة»[21].

وقد بدت لنا الكاتبة متأثرة بالمنهج الاستشراقي في تفضيل الشيخ الأكبر عن غيره، وفي ذلك تقول في مقدمة معجمها متحدثة عن ابن عربي: «أعطى للديانة الإسلامية وأفق أفكارها وسعا

عالميا كوْنيا وإن لم يلمس العالم الغربي عن قرب هذه العبقرية باستثناء طبعا المهتمين بالإسلاميات والتصوف الإسلامي كماسنيون وهنري كوربان»[22]، ومعلوم للمشتغلين في حقل الاستشراق ما لهذين المستشرقين من اهتمام بالتصوف الإسلامي ولا سيما بالحلاج (ت: 309هـ) وابن عربي.

ويبقى هذا منهج الكاتبة اختارته لنفسها طريقا لإخراج معجمها إلى النور، ولعل النتاج العلمي الغزير الذي عُرف به ابن عربي هو ما دفعها لتخصيص معجم يُلمُّ بالألفاظ الدارجة في كتبه، لكن يبقى أن العنوان لا يعكس المحتوى الدقيق لمتن المدونة.

4.2 موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي لرفيق العجم:

هو موسوعة شاملة للتصوف الإسلامي جمعا وشرحا، صدرت طبعته الأولى العام: 1999م، أحادي اللغة (عربي/عربي) فيما يخص المداخل المعجمية الصوفية وثلاثي اللغة (عربي/انجليزي/فرنسي) بالنسبة للمسارد.

أ. الوصف الخارجي:

تتكوَّن "موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي" من (1279) صفحة، حجم: (24×17)، كتب على واجهته عنوان المعجم "موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي" بخط كبير غليظ أبيض اللون يتوسط الصفحة داخل إطار باللون الأزرق القاتم، والمحاط بإطارين واحد على اليمين وآخر على اليسار باللون الأصفر، مع وجود اسم المؤلف ولقبه مسبوقا بلقبه العلمي، ومذيل بدار النشر (مكتبة لبنان ناشرون)، وتوضح الصورة واجهة الموسوعة:

الشكل 4:

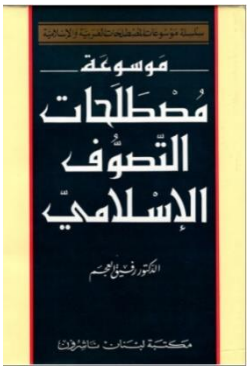

المصدر: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي لرفيق العجم

ب. أهداف المعجم وأهميته:

استهل المؤلف معجمه بمقدمة وافية مفصلة كعتبة بادئة، مدركا أنها تستقطب اهتمام المتلقي تلقائيا من خلال موقعها، ولهذا الخطاب المقدماتي أهميته البالغة في فهم تصور المؤلف وطريقة بنائه لمعجمه، ولا غرو من اعتبار «عتبات النص بنيات لغوية وأيقونية تتقدَّم المتون وتعقبها لتنتج خطابات واصفة لها تعرف بمضامينها وأشكالها وأجناسها وتُقنع القُرَّاء باقتنائها»[23]، مما يعني أن المتن المركزي مربوط بعتباته ولا يمكن تصوُّره دونها.

يقول الدكتور رفيق العجم في معرض حديثه عن الهدف الذي توخاه من تأليف موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي: «المصطلحات والتعريفات الصوفية تبتعد وتتشتت عن الحقل الدلالي للغة، والأحلام التي يتحدث عنها الأولياء والصالحون رموز لها دلالات وأبعاد»[24]، فهذا الاختلاف بين المفهوم اللغوي والمفهوم الصوفي للوحدات الإفرادية يتبين من خلال المعاجم المتخصصة، ثم يردف قائلا: «وإذا انحصر الدور في جمعنا هذه المصطلحات إلا أن هذا الجمع يهدف فيما يهدف إلى مد نظر الباحثين بذاك الزاد المبَيّن لهذا التراث متيحا أمامهم بنظم وتيسير زخما مصطلحيا معبّرا عن تلك الفلسفة الخاصة وعن ذاك الموروث ليعمل فيه تحليلا وتفكيكا وتعليقا علاوة على الغنى اللفظي الذي يصيب الحركة المعجمية العربية »[25]، وهكذا يرى الكاتب أن موسوعته تساهم في عرض المصطلح الصوفي وإدراك معانيه من غير مؤونة.

ويعلِّل المؤلف طريقته المستجدة في طرح المصطلح الصوفي، كإعطاء معان بديلة عن دلالة اللفظ المعهودة تفكيكا للموروث الصوفي وقراءته من عدة جوانب بقوله أنها «تقع في ميدان الحركة النقدية التحديثية التي تحاول قراءة الموروث من عدة جوانب مستفيدة من إنجازات الإنسان العلمية وتجهد في إلقاء المزيد من الضوء على زوايا الأدوات لتبيانها ولا سيما أن العلم المعاصر يبتعد تدريجيا

عن النظرة الواحدية والتفسير التوكيدي الدوغماطي»[26]، لذلك يبدو لنا جهد رفيق العجم جهدا جامعا لمصطلحات التصوف مستوعبا لأطراف الاصطلاحات الصوفية.

ت. تبويب المعجم:

لقد اتبع الكاتب طريقة منطقية في عرض المادة العلمية المتعلقة بالتصوف، فبع المقدمة انتقل إلى تفصيل منهجيته في اختيار الألفاظ وضبطها فيما أسماه بمنهجية تحقيق الموسوعة، وبعدها بسط المعجم المصطلحي الخاص بالتصوف، وأنهى موسوعته بمسرد مصطلحات التصوف (عربي، فرنسي انجليزي) و(انجليزي، فرنسي، عربي) و(فرنسي، انجليزي، عربي)، وقد استأثر معجم المصطلحات بالجزء الأكبر من حجم الموسوعة بما نسبته (84%) وعليه هو الموضوع الأساس في هذا العمل الموسوعي، والشكل التوضيحي الموالي يظهر التقسيم بدقة[27]:

الشكل 5:

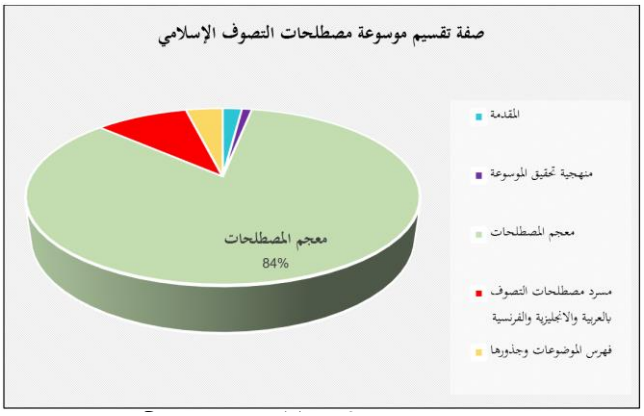

ث. موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي... محامد ومعايب

تعدَّدت محاسن هذه الموسوعة وطغت على المآخذ، فالمصنِّ ف أصاب كبد التصوف حينما اختار المصطلحات الصوفية ذات التعريفات الحاملة لأبعاد وجدانية وتم حصر التعريف بالمفاهيم الأساسية لجعله مستقلا بيّنا، كما استوفى كل مصطلح تفريعاته التي اعتمدها المتصوفة.

ولعل من أسباب ريادتها أنها جاءت بعد جهد المعاجم الثلاثة المذكورة، ناهيك عن توسيع الكاتب لنظرته بإضافة ملاحق للمعجم الخاص بالمصطلحات، ورغم ذلك نتمنى أن تتواصل الطبعات المنقحة للموسوعة.

الخاتمة:

نخلص في نهاية بحثنا لمجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

1.لقد تصدى لجمع المصطلح الصوفي في العصر الحديث مجموعة من الأكاديميين الذين خصصوا له مصنفات بين معاجم وموسوعات.

2. إن كل المصطلحات الواردة في المعاجم التي كوَّنت عينات البحث، تدخل في نطاق اللغة المتخصصة المرتبطة بالتصوف، وتتميز بالكم المصطلحي الهائل الذي تحتويه.

3. ألفينا كل مصنِّف قد استفرغ في معجمه وسعه، وعبَّر فيه عن وجهة نظره حيال التصوف بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، حيث يظهر ذلك من خلال المقدمة ومن خلال طريقة عرض المصطلحات أيضا.

4. شكَّل التصوف رافدا من روافد الحركة الفكرية العربية في دراستها للتّراث الإسلامي عموما، وبالنظر للضرورات المعرفية في عصرنا أرى أن للمعاجم المتخصصة المعاصرة الدور الأكبر في مقاربة المصطلحات الصوفية.

5. انطلاقا من فكرة أن المعاجم المتأخرة أَوْفى مادةً من المتقدمة، ألفينا الطبعات الجديدة والمؤلفات الأحدث من غيرها قد حازت قصب السبق في حشد أكبر عدد من المصطلحات مع الإفادة من ثغرات المعاجم السابقة وتفاديها، وبالتالي جرت في أبعد الغايات.

6.هناط معاجم اعتمدت التدرُّج الدَّلالي في التصنيف، حيث بدأت بالمعنى اللغوي فالاصطلاحي، وهناك من أزاحت هذه ا الخاصية وتناولت معنى اللفظ بصفة عامة.

7. إن العمل المعجمي الذي جعلناه مدونة بحثنا يدخل ضمن الصناعة المعجمية (Lexicography) حيث استثمر الكتاب المصطلحات الصوفية لبناء مؤلفاتهم ورتبوها وفق نظام معين، ثم كتابتها فإخراجها على شكل معجم.

8. نعتبر الصناعة المعجمية قراءة من قراءات الفكر العربي المعاصر للتصوّف، لأنها تبرز جانبا مهما يتعلق بحصر المصطلحات بايراد مفاهيمها على الوجه الصحيح، وهذا في حد ذاته أس المعرفة بعالم التصوف للمختص وغيره.

المراجع:

1. أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط2، 1994م

2. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974م.

3. رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1999م.

4. سعاد الحكيم، المعجم الصوفي -الحكمة في حدود الكلمة- دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1401هـ/ 1981م. - حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1992م.

5. شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ/ 1985م.

6. شهاب الدين المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.

7. صلاح الدين الصفدي، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، 1974م.

8. عبد المجيد محمد أبو سكين، المعاجم العربية (مدارسها ومناهجها)، ط2، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، مصر، 1402هـ / 1981م.

9. عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1424هـ/ 2003م.

10. عبد المنعم الحفني، معجم المصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، ط2، 1407هـ/ 1987م.

11. محمود فهمي حجازي، الاتجاهات الحديثة في صناعة المعجمات، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة.

12. يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، 1436هـ/ 2015م.

13. يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط1، 2008م.

الهوامش:

(1) محمد بن علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، (لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996م) 456/1.

(2) أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، (القاهرة: عالم الكتب، 1989م)، 30.

(3) محمود فهمي حجازي، الاتجاهات الحديثة في صناعة المعجمات، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء: 40، ص: 05.

(4) يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، (لبنان: الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط1، 2008م)، 22.

(5) وجدنا البيت منسوبا للقاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البلنسي نزيل تونس، أنشده رحمه الله تعالى لنفسه في اليوم الذي مات فيه، وهو آخر ما سمع منه ليلة عاشوراء سنة 693هـ، ينظر: شهاب الدين المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ط1، 1997م) 340/4، أما البيت الثاني فلم نعثر عليه.

(6) بدر بن ناصر بن محمد العواد، الألوان ودلالاتها عند أهل البدع الإمامية والصوفية نموذجا، مجلد العلوم الشرعية، جامعة القصيم، المجلد (07) العدد (04)، شوال 1435هـ/ يوليو 2014م،02.

(7) ينظر: عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ط1، 1424هـ/ 2003م).

(8) عبد المنعم الحفني، معجم المصطلحات الصوفية، (بيروت: دار المسيرة، ط2، 1407هـ/ 1987م) والمقطع مقتطف من: أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2، 1994م) 89.

(9) حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، (القاهرة: مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، ط2، 1992م) 07.

(10) المرجع السابق، 17.

(11) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي –الحكمة في حدود الكلمة– (لبنان: دندرة للطباعة والنشر، ط1، 1401هـ/ 1981م) 23.

(12) ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التَّنْزيل، تحقيق: عبد الله الخالدي، (لبنان: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1416هـ)، 15.

(13) ابن عطية المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (لبنان: دار الكتب العلمية، ط1، 1422 هـ، 34.

(14) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ/ 1974م) 213/4.

(15) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي –الحكمة في حدود الكلمة–، 23.

(16) عبد المجيد محمد أبو سكين، المعاجم العربية (مدارسها ومناهجها)، (مصر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، مصر، ط2، 1402هـ / 1981م) 83.

(17) هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الشيخ محيي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، المعروف بابن عربي، ولد بمرسية من الأندلس، نزيل دمشق، ذكر أنه سمع من ابن بشكوال وابن صاف، وسمع بمكة من زاهر بن رستم ، وبدمشق من ابن الحرستاني، سكن الروم مدة، وكان ذكيا كثير العلم، كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهد وتفرد، وتعبد وتوحد، وسافر وتجرد، وعمل الخلوات، توفي في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة، صاحب التصنيفات في التصوف وغيره، من تواليفه: "الفتوحات المكية" و"فصوص الحكم"، و"التجليات الإلهية في الصورة الإنسانية" وغيرها. تنظر ترجمته على سبيل المثال: صلاح الدين الصفدي، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ط1، 1974م) 435/3، شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، (لبنان: مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ/ 1985م) 48/23.

(18) محيي الدين بن عربي، فصوص الحكم، علَّق عليه: أبو العلا عفيفي، (لبنان: دار الكتاب العربي)، 07/1.

(19) وحدة الوجود تعني أن «الأشياء موجودة في الخارج كما هو مذهب النظار غير أنها موجودة بوجود واحد هو الحق سبحانه، لا أنها موجودة بوجود زائد على الوجود الحق سبحانه» ينظر: رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، (لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1999م)، 1034.

(20) محيي الدين بن عربي، فصوص الحكم، 43/1.

(21) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 310/16.

(22) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي –الحكمة في حدود الكلمة–، 16.

(23) يوسف الإدريسي، عتبات النص في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، (لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون، 1436هـ/ 2015م)، 21.

(24) رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، (X).

(25) المرجع السابق، (XIII).

(26) نفسه، (XlV).

(27) لقد أفردنا لهذه الموسوعة دون سواها من المعاجم المعروضة رسما توضيحيا لأنها ضمت مسارد باللغات العربية والانجليزية والفرنسية والتي تكون فيما بينها معجما ثلاثي اللغة بلغ عدد صفحاته (120)، ناهيك عن طول المقدمة التي بلغت عدد صفحاتها مع منهجية التحقيق (38) صفحة وهذا بخلاف المعاجم المعروضة في هذا البحث.